شرح كتاب (عقيدة السلف وأصحاب الحديث) لأبي عثمان الصابوني-رحمه الله.

شرح فضيلة الشيخ

أ.د. أحمد بن عبدالرحمن القاضي

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس (٣)

فيقول الشيخ مبرأ أهل السنة:

(**ولا يكيفونهما بكيف أو يشبهونهما بأيدي المخلوقين، تشبيه المشبهة**) ذلكم أن المشبهة أهل التمثيل والعياذ بالله يقول قائلهم: يد الله كيد المخلوق تعالى الله عما يقولون علوا عظيما، وشبهتم في ذلك أنهم يقولون إنما خاطبنا الله بما نعقل، ونحن لا نعقل إلا إيدي المخلوقين - عياذًا بالله - ولا شك أن هذه شبهة داحضة مردودة بالكتاب والسنة، قال الله عز وجل: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، وقال النبي صلى الله عليه وسلم للرجل الذي قال ما شاء الله وشئت قال: ((أجعلتني لله ندًا، بل ما شاء الله وحده))، فالله سبحانه وتعالى لا شبيه له ولا ند له ولا نظير ولا كفأ {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ}.

وكذلك نردها بالعقل، فلا يمكن أن يكون الخالق الكامل من جميع الوجوه، كالمخلوق المربوب الناقص من جميع الوجوه، هذا لا يمكن عقلا، تعالى الله عما يقولون علو عظيما.

ثم نقول لهذا المشبه: ألا ترى أن المخلوقات نفسها تتفاوت في صفاتها مع اتفاق الأسماء، ألسنا نقول: هذه يد الإنسان، وهذه يد الباب، وهذه يد الدابة، وهذه يد كذا وكذا، فنسميها يد، ويصدق عليها حقيقة أنها يد، ومع ذلك بينها تفاوت عظيم، فإذا كان هذا التفاوت حاصل بين المخلوقات نفسها، فهو بين الخالق والمخلوق من باب أولى، فالله المثل الأعلى في كل شيء، فلهذا قال الشيخ رحمه الله:

(**وقد أعاذ الله تعالى أهل السنة**) أعاذ بمعنى عصم، وحفظ.

(من التحريف والتشبيه والتكييف، ومَنَّ عليهم بالتعريف والتفهيم حتى سلكوا سبيل التوحيد والتنزيه، وتركوا القول بالتعطيل والتشبيه، واتبعوا قول الله عز وجل: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}) فالله الحمد أولا وآخرًا.

(أعاذ الله تعالى أهل السنة من التحريف) التحريف في اللغة: هو التغيير، والمراد به اصطلاحا تغيير اللفظ نصا أو معنى، وبه يتبين أن التحريف ينقسم إلى قسمين، تحريف لفظي وتحريف معنوي، فأما التحريف اللفظي، فهو المتعلق بالألفاظ وله ثلاثة أنواع:

إما بزيادة حرف، وإما بزيادة كلمة، وإما بتغيير الحركة الإعرابية.

فيكون التحريف بزيادة حرف، كمن حرف قول الله عز وجل{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}، قال: استولى، فزاد حرف.

والتحريف بزيادة كلمة، كقول من قال في قول الله عز وجل{وَجَاء رَبُّكَ}، قال: وجاء أمر ربك، فزاد كلمة.

والتحريف بتغيير الحركة الإعرابية، كمن نصب لفظ الجلالة في قول الله عز وجل{وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}، قال وكلم اللهَ موسى تكليما، لكي يجعل لفظ الجلالة مفعول به، فيكون التكليم حاصل من موسى وليس من الله ليتوصل بذلك إلى نفي صفة الكلام، ولهذا جاء رجل من هؤلاء المعتزلة إلى أبي عمرو بن العلاء، وهو من كبار القراء رحمه الله من أهل السنة، فقال أريدك أن تقرأ: (وكلم اللهَ موسى تكليمًا) يريد أن يقرأ قراءة لا أصل لها شاذة، لكي يذهب ويطير به في الآفاق، ويقول ثبتت هذه القراءة عن أبي عمرو بن العلاء، فقال له: أرأيت إن قرأتها كذلك، فماذا تصنع بقول الله عز وجل: {وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ}، فسد عليه هذا الباب.

أما التحريف المعنوي: فيكون بإبقاء اللفظ على ما هو عليه، لكن يقول: المراد به كذا وكذا، فيخترع معنى من عند نفسه ما أنزل الله به من سلطان، كمن قال : الاستواء المقصود به الاستيلاء، ليس المقصود به العلو، فهذا يسمى تحريفا معنويًا.

وأما التشبيه: فالمقصود به التمثيل، وينبغي أن نعبر عنه بهذا التعبير القرآني التمثيل؛ لأن الله تعالى قال:{ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، و لم يقل: ليس كشبهه شيء، ولكن على كل حال لا مشاحة في الاصطلاح، ولو ذهبنا نبحث عن فرق بين التمثيل والتشبيه، لأمكن أن يقال: إن التمثيل هو المطابقة من جميع الوجوه، والتشبيه هو المطابقة من معظم الوجوه.

فما هو التمثيل: التمثيل هو إثبات مماثل للشيء كأن نقول مثلًا: هذا الكتاب مثل هذا الكتاب، لأنهما نسختان خرجتا من مطبعة واحدة، والتمثيل في الصفات: كقول أهل التمثيل والعياذ بالله: يد الله كيد المخلوق، سمع الله كسمع المخلوق، بصر الله كبصر المخلوق، إلى آخر ذلك.

ولا شك أن التمثيل كما أسلفنا باطل كتاب وسنة وعقلًا.

قال: (**والتكييف**) التكييف: معناه حكاية كيفية الصفة، أو تعيين كيفية الصفة.

وهذا لا شك في حق صفات الله تعالى ممتنع محرم، ممتنع لأنه لا سبيل إلى العلم به أي بالكيفية، ومحرم؛ لأنه قول على الله بغير علم.

مثاله: أن يقول المكيف والعياذ بالله: كيفية نزول الله إلى سماء الدنيا كذا وكذا وكذا، ويحكي كيفية ما من عند نفسه، فهذا لا شك أنه من أعظم الجرم، فأهل السنة والجماعة ولله الحمد برئاء من التحريف و التشبيه والتكييف، لم يذكر الشيخ لفظ مشهور، سيذكره بعد قليل وهو التعطيل.

التعطيل: معناه في اللغة التفريغ والإخلاء، يقال: امرأة معطال، أي خلية من الحلي، يعني حسنها وجمالها أغناه عن استعمال الذهب والحلي، ونقول نحن في لغتنا عطلة نقصد أنها خالية من العمل أو الدراسة، أو نقول رجل عاطل أي أنه بلا عمل، خال فارغ من العمل، ويقول الشاعر:

لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي

يعني لا تنكري خلو وفراغ الرجل الكريم من المال، فإن السيل حرب للمكان العالي، فكما أن السيل إذا نزل على الأماكن العالية انحدر يمنة ويسرة فكذلك الرجل الكريم ما أن يبلغه المال حتى يفرقه يمنة ويسرة فيبقى عاطل عن المال.

والتعطيل في الاصطلاح: المقصود به إنكار أو جحد أو نفي صفات الله تعالى كلها أو بعضها، وبه يتبين أن التعطيل ينقسم إلى قسمين:

تطيل كلي وتعطيل جزئي، فإما التعطيل الكلي والعياذ بالله فهو طريقة من ينكر أسماء الله تعالى وصفاته جملة وتفصيلًا، وهؤلاء هم الجهمية والباطنية والمفوضة تفويضا كليًا، فإن هؤلاء يعطلون أسماء الله تعالى وصفاته جملة وتفصيلًا، فلا يثبتون لله الأسماء ولا الصفات، ولا يقولون أنها تدل على كذا وكذا أبدًا، فهذا والعياذ بالله تعطيل كليًا، ولهذا لم يتردد أهل السنة في تكفيرهم، في تكفير الجهمية؛ لأن الجهمية يقولون: لا سميع، ولا بصير، ولا عليم، ولا قدير، يقولون: لو أثبتنا هذه الأسماء لأثبتنا عدة آلهة عياذًا بالله، فهؤلاء هم الجهمية وقد كفرهم أهل السنة، قال ابن القيم في نونيته:

ولقد تقلد كفرهم خمسون في عشر من العلماء في البلدان

بلغوا خمسمائة، يعني ثبت النقل عن خمسمائة من العلماء بتكفير الجهمية والعياذ بالله، وذلك لشناعة مقالتهم.

وأما التعطيل الجزئي: فكتعطيل المعتزلة، وإن كانوا في الحقيقة حالهم قريب من حال الجهمية لكنهم قالوا إنهم يثبتون الأسماء وينكرون الأسماء فيقولون: نعم هو سميع بصير عليم قدير، لكن لا يثبتون ما تضمنته هذه الأسماء من الصفات فيقولون سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، عليم بلا علم، قدير بلا قدرة، عياذًا بالله، ويزعمون بذلك أنهم لو قالوا سميع ومتصف بالسمع، فقد اثبتوا قديمين، السمع وسميع، وكل هذه مغالطات يدرك الإنسان العامي بفطرته أنها باطلة، وأن الله سبحانه وتعالى إذا قال عن نفسه أنه سميع بصير عليم قدير فأن هذه أعلام وأوصاف، فأسماء الله تعالى أعلام وأوصاف، أما أسمائنا البشر نحن فهي أعلام فقط، ربما تكون أوصاف وربما لا تكون، تقول عن واحد من الناس: اسمه صالح لكن ربما كان طالحًا، فصالح علم عليه ربما كان وصفًا وربما لم يكن،

تقول عن واحد من الناس أمين، وربما كان من أفسق الناس، وتقول صادق وربما كان من أكذب الناس، فإن أسماء الناس أعلام لا أوصاف، أما أسماء الله الحسنى فإنها أعلام وأوصاف، أعلام على ذاته سبحانه وتعالى فهو سبحانه له تسعة وتسعون اسما، مائة إلا واحدا، هذا ما نعلمه نحن، وإلا فقد استأثر الله تعالى بشيء لا نعلمه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: ((أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحد من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك))، إذًا فالله أسماء أكثر من تسع وتسعين، لكن الذي نعلمه، أو يمكن أن نعلمها منها هو هذا المقدار، وأما أنها أوصاف فنعم فلأن كل اسم منها تضمن صفة، فاسمه السميع تضمن صفة السمع، واسمه البصير تضمن صفة البصر وهكذا، إذًا التعطيل الجزئي من أمثلة القائلين به المعتزلة، ومن أمثلته الأشاعرة والماتردية، فإن هؤلاء أثبتوا الأسماء و لم يثبتوا من الصفات إلا سبعًا وهي الصفات المعنوية، وهي الحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام، فقط، وما سواها حرفوه فلا يثبتون الصفات الخبرية، لا يثبتون لله الوجه واليدين والعينين، ولا يثبتون لله الصفات الفعلية كالمجيء والإتيان والرضى والسخط، وكل ذلك ثابت في كتاب الله عز وجل، الله تعالى منّ على أهل السنة بالتعريف والتفهيم وهذا ولله الحمد يدلنا على أن طريقة السلف المتقدمين هي الفهم والإثبات والإقرار، وليس مجرد الإمرار دون فهم للمعنى، كلا، بل كما قال الشيخ:

(**ومَنَّ عليهم بالتعريف والتفهيم حتى سلكوا سبيل التوحيد والتنزيه، وتركوا القول بالتعطيل والتشبيه**) وفي بعض النسخ مكتوب: (**حتى تركوا القول بالتعليل**) وهذا تصحيف، تعدل بالتعطيل والتشبيه (**واتبعوا قول الله عز وجل: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}**) وهذه الآية دستور لأهل السنة في باب الصفات، فإنها تتكون من شقين الشق الأول، يرد على أهل التمثيل، والشق الثاني يرد على أهل التعطيل، فقوله سبحانه: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}**، رد على أهل التمثيل والتشبيه، **{وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}**، فكأن الله تعالى يقول لنا: أثبتوا لي ما أثبته لنسي من السمع والبصر إثبات بلا تمثيل، فحصل ولله الحمد الإثبات المنافي للتعطيل، وحصل التنزيه المنافي للتمثيل.

(وكما ورد بذكر اليدين بقوله: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}، وقوله: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ} وردت الأخبار الصحاح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذكر اليد، كخبر محاجة موسى وآدم، وقوله له: ((خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته))، ومثل قوله صلى الله عليه وسلم: ((لا أجعل صالح ذرية من خلقته بيدي، كمن قلت له: كن فكان))، وقوله صلى الله عليه وسلم: ((خلق الله الفردوس بيده))) إذًا كما ثبتت صفة اليدين بالقرآن العظيم ثبتت أيضًا بالسنة الصحيحة، واستدل الشيخ لذلك بخبر محاجة موسى وآدم، وقول موسى لآدم: ((**خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته**))، وهذا حديث صحيح يتم الاستدلال به، أما الحديث الذي بعده، وهو ما ساقه الشيخ: (**لا أجعل صالح ذرية من خلقته بيدي، كمن قلت له: كن فكان**)، فأول هذا الحديث أن الملائكة قالت: (يا ربنا أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويركبون ويلبسون، ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو، فكما جعلتم لهم الدنيا، فاجعل لنا الآخرة)، قال: (**لا أجعل صالح ذرية من خلقته بيدي، كمن قلت له: كن فكان**)، ولكن هذا الحديث إسناده ضعيف، فيه جهالة وانقطاع، لذلك لا يتم الاستدلال به، وكذلك الحديث الذي بعده وهو: (**خلق الله الفردوس بيده**)، فقد جاء بهذا اللفظ: ((إن الله عز وجل خلق ثلاثة أشياء بيده: خلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس الفردوس بيده))، لكن هذا الحديث الذي رواه البيهقي، قد أعله بالإرسال، حديث مرسل، وتعلمون أن المرسل منقطع، فلا يتم الاستدلال به، أيضًا في إسناده ضعفاء، فلا يتم الاستدلال به، وفيما جاء في كتاب الله، وصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأحاديث الصحيحة التي ذكرناه آنفًا غنية عن الأحاديث الضعيفة.

ونكتفي بهذا القدر هذا اليوم، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.